بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتي الرسول ليعالج في مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُلّ وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهّد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هي الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتي : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ في رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفي ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي .. نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة »[1] .

---

(١) متفق عليه .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا الحيثيات التي تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ .

ومادام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلابد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يحيي ويميت ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيي ويميت . ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم في ربه يقول الحق عنه :

﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائيًا مضللا ليفحم ويسكت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لايميته بل يحييه فى منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعا لا ؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتى بدون هدم بنيته بشىء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة . ولا أحد قادر على أن يميت أحداً إذا رغب فى أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة فى الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إنى رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذى له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ .

لم يقل محمدٌ وآمنوا بى ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية فى شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال فى وصف النبى : ﴿ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والأمية ـ كما علمنا من قبل ـ شرف فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهى إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإمّا بالذى قاله موسى لقومه : « واجعل كلامى فى فيه » .

ويقول فيه عيسى ـ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسه ـ ، وإنما تأتى له كلمات ربنا فى فمه ، والقول الشامل فى وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بيّنه الحق فى قوله :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أى شىء هو أزلى فى علم الله ، وكأنه يقول للشىء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً فى طىّ قدرتى .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شىء بلا أسباب ، كعيسى ـ عليه السلام ـ فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفى هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شىء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هى أيضاً الآيات التى فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى قال : تلك أمة أحمد »[1] .

---

(١) ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ... ﴾ الخ .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، هو الذى يدل عليه قول الحق سبحانه:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله:

﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾. و«لعل» رجاء وطلب. ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين: إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه، وهو لون من التمنى مثل قول من قال: ليت الشباب يعود يوماً، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب. أو كقول إنسان: ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح، وهذا طلب لمحال، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه، وإمّا طلب ممكن التحقيق. وهو ما يسمى بالرجاء. وله مراحل: فأنت حين ترجو لإنسان كذا، تقول: لعل فلاناً يعطيك كذا، والإدخال فى باب الرجاء أن تقول: لعلى أعطيك؛ لأن الرجاء منك أنت، وأنت الذى تقوله، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه، والأقوى أن تقول: لعل الله يعطيك. ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب، أما إذا قال الله: لعلكم، فهذا أرجى الرجاءات، ولابد أن يتحقق.

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى، يتكلم عنهم بعرض قصصهم، وفضائحهم ونقضهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم، وأوضح لنا: إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً؛ لأن الحكم لو كان عاماً، لما وُجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد. ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى «صيانة الاحتمال». ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذى قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مخريق خير يهود». وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون فى أنفسهم إنه يعلم ما في صدورنا من تفكير فى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمَّم الحكم فمن يفكر فى الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدى وأنا أفكر فى الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون فى حكمهم بين الناس ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟

مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأى كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة فى الدعوة ، فيأتى بقضية عيسى ، ثم يدخل فى الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كى يستغل انفعالات النفس بعد أى قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشىء » أن الشىء كان له تمام وجودى مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و « السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثنى عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائى ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائى وهو يوسف فيكون العدد اثنى عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثنى عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً ﴾ .

وفى سورة يوسف نقرأ :

﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك فى الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط فى أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل فى أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتى » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً إناث ، لأننا نقول : « جاءنى رجلان اثنان » و « امرأتان اثنتان » ؛ أى اثنان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتى عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهى مؤنثة ، وقطعهم أى كانت لهم - من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شىء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم ـ فيما مضى ـ تجمعاً قوميًا وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد فى كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس ـ مثلاً ـ تجد « حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه نشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا الأرض » فهذا يعنى أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ .

أى أنه حين يجىء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم ـ أيها اليهود ـ لأن عدوكم لن يتتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذى قال الله عنه : « جئنا بكم لفيفاً » لتكون الضربة موجهة لكم فى مكان واحد تستأصلكم وتقضى عليكم .

ويأتى الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هى طلب الماء الذى يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم فى التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرِّى .

والحق يقول : ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أرويكم ، ولكن سأستسقى لكم ربى ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرارى : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شىء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ،ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أى طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل فى سورة البقرة : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ . وفى سورة الأعراف التى نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : « إذ استسقاه قومه » ، وفى سورة البقرة قال : ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعى . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله ـ جلت قدرته ـ وهذا أمر طبيعى .

والحق سبحانه يقول فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحى نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فقلنا اضرب ﴾ ؛ وهنا فى سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أنَّ « قُلْنَا » تساوى « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط فى قوله الحق : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

فليس كل وحى لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .

وقوله الحق :

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرةالله فى أن يعطى ويمنع بالشىء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التى فى يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أى كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهواً ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشىء الواحد ، وكذلك فى أمر العصا ؛ إنها هى حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ؛ فالانبجاس أن يأتى الماء قطرة قطرة ، ثم يأتى الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتى وتجىء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التى أعقبت الضربة فى لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلّم الإنجيلا
ثم جاء لسيدنا محمد وقال :
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع فى العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتى عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذانا بالانفعال من الأرض .

﴿ فَانۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذى يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوى ، فلم تتفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بنى إسرائيل فى التيه ، وفى الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم فى عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا فى الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقى أمر الطعام لهؤلاء . فقال :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ساعة تأتى كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًا ، لكن هى مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أى من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المنّ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن فى العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنّ - أيضاً - وهو فى طعم القشدة وليونتها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوربا وحوض البحر المتوسط واحدته « سَلواة » وهو « السُّمانى » ويسميه أهل السواحل « السُّمان » وهو يأتى مهاجراً ولم يربه أحد ، وفى هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهناك مصانع تصنع المن فى أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى - كما قلنا - هو طائر « السمان » الموجود فى بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافىء فيأتى إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد أن يأتى لهم برزق غيبى يمدهم ويمنحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر الماء ، وكما ظلّلهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريَّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذى يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أى مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً فى سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر فى الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفى آية أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل فى القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هى بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية فى هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التى لها وزنها وخطرها وهى تنفيذ الأمر على أى مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم فى التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعنى الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أى سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك فى سورة البقرة قد جاء النص التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً فى الألفاظ واللقطات عن الآية التى وردت فى سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففى آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفى آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهى السكن أى ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله فى سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد فى القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتى لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفى آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أى أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفى آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفى سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففى جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول فى جمعها « أقفال » . أما فى جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد فى المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أى أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء ـ سبحانه ـ بجمع المؤنث السالم الذى يدل على القلة وبجمع التكسير الذى يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين فى الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً فى عجز الآيتين ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفى بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكنى سأزيدكم حسناً ، وفى هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذى ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيآتكم » التى تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى